

ازدواجية العلي والسلطة لدى إخباريو القرن الأول: الشعبيّ عامر بن شراحيل أنموذجاً

Hadhum Kardi

(Doctorante/Université de Tunis)

Résumé :

Je vais essayer dans cet article d'étudier la relation d'une catégorie de savants qui sont les chroniqueurs (Al-Ikhbaryoun) avec le pouvoir politique dans une époque critique lors du fondement de "l'Etat Arabo-islamique" au premier siècle de l'hégire. Cette relation se caractérise par une complémentarité et en même temps par une contradiction et j'ai choisi le personnage, d'Amour Ben Charhül Chaabi dont le riche parcours intellectuel et les événements qu'il a vécu ont fait de lui un échantillon de son époque et de ses contemporains.

ملخص

سأحاول من خلال هذا المقال دراسة وكشف علاقة فئة من العلماء هم الإخباريون بالسلطة في فترة حرجية من فترات التأسيس الفكري والسياسي للدولة العربية الإسلامية، القرن الأول للهجرة. هذه العلاقة التي جمعت التناقض والتكامل في آن. اخترت أن أعبّر عنها من خلال شخص عامر بن شراحيل الشعبيّ الإخباريّ التابعي، حيث تميزت مسيرته بالشراء الفكري وتنوع الأحداث ما جعله مثال حيّ عن بني عصره.

Abstract :

I will try in this article to study the relationship of a class of scientists (Al-Ikhbaryoun) with political power at a critical period of political and intellectual foundation of the "Arab-Islamic State" in the first century of Hejir. This relationship collected contradiction and integration at the same time, and I choose to express it through the scientific work of Amir Ben Charahül al-Chaabi considered as being the best illustration of that period full of rich events.

إنّ العلاقة بين العلماء والسلطة علاقة في جدل دائم، علاقة تكامل وصراع في الوقت نفسه. لا تخلو فترة تاريخية، قديمة كانت أم حديثة، ولا بلاط حاكم من هذا الصراع المعلن أحياناً والمبطن في أكثرها، لحاجة الأول إلى تأييد بلاطه بعلماء من جميع اختصاصات لتسيير شؤون دولته وتثبيت ركائز حكمه وحتى لتسليته وتزويد ثقافته، وحاجة الثاني إلى المال وإلى دعم فكره وتوفير الظروف لتفرغه لذلك، وقد اخترنا أن يكون "الشعبيّ" محلّ الدرس في هذا المقال لأنّه صورة جليّة عن هذه الازدواجية، وإن كانت

في الحقيقة تجربة لها خصوصيتها وطبيعتها تفرد بها عن باقي أبنائه عصره. فقد تشبّع بعلوم عصره وتميز فيها، وانعكس ذلك وتجلّى في مواقفه وآرائه في نقده العلمي أو تجاه الأحداث السياسية التي عايشها وشارك فيها في بعض الأوقات.

I. نبذة عن حياة الشعبيّ :

1. ترجمته :

يعرف عامر بن شراحيل الشعبيّ بشيخ الإخباريين، ويكنّى بأبي عمرو¹. اختلف في تحديد إسمه الكامل، إذ ذكرت له العديد من الأسماء منها عامر بن شراحيل بن مسعود بن قيس، وفي موطن آخر عامر بن شراحيل ابن ذي لعدة الشعبيّ⁽²⁾، وكذلك ابن عبد الشعبيّ³، وفي بعض الأحيان ذكر بعامر بن شراحيل ابن عبد ذي كبار⁴. يعود نسبه الشعبيّ إلى إنتمائه إلى بطن شعب، وهو بطن من بطون حمير إستقرّ بجبل باليمن يسمّى ذوالشعبين لأنّه ذو قمتين، فنسب هذا البطن إليه، بعد استقر به ملكهم الأخير في الجاهليّة ليحتمي به من الموت. دفن هذا الملك بعد وفاته بذوالشعبين، ويذكر أنّه قال: 'فأبيت ذو الشعبين ليجبرني من الموت فأفخرني'. شمل الاختلاف أيضا سنة ميلاده وسنة وفاته، فامتدّت السنوات المقترحة كسنة ميلاد له، على امتداد العشريّة الثالثة من القرن الأوّل للهجرة⁵. وفي تقديرنا أنّ الأقرب إلى الصّحة هو أن تكون سنة ولادته سنة 21 هجري. لم تكن سنة وفاته أقلّ إختلافا من سنة ولادته، غير أنّ الغالبية الساحقة ممن ذكره لم تتعدّ سنة وفاته 105 هجري⁶. كما بيّنا سابقا فعامر هو من عائلة حميريّة يمنيّة الأصل،

¹ (السمعاني، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، ط. 1، 1998، ص. 431؛ السيوطي (جلال الدّين أبو الفضل عبد الرّحمن)، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمّد عمر، مكتبة الثقافة الدّينيّة، طبعة 1996، ص32؛ البخاري (أبو عبد الله بن محمّد بن أبي الحسن إسماعيل)، التاريخ الكبير، تحقيق عبيد بن فيروز وعمر بن عبد الرحمن)، مؤسّسة الكتب النّقائيّة، سنة الطّبّع لم تذكر، م 6 ص450؛ ابن الخياط، طبقات، رواية الأزدي، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، لبنان طبعة 1993، ج 3 ص288؛ ابن خلّكان (أبو العباس شمس الدّين)، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة طبعة سنة 1948. 1949، ج2 ص277؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، لبنان الطّبعة الثالثة 1955. 1957، ج3 ص70.

² ياقوت (شهاب الدّين أبي عبد الله)، معجم الأديباء، إرشاد الإرب إلى معرفة الأدب، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطّبعة الأولى 1993، ج1 ص1475.

³ ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر ودار بيروت، لبنان طبعة 1957، ج6 ص246؛ الشّيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عبّاس، دار الزّائد العربي، بيروت الطّبعة الثانية 1998، ص81؛ الذّينوري (أبو محمّد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة)، المعارف، تحقيق محمّد إسماعيل عبدالله الضاري، طبعة المكتبة الحسينيّة، مصر الطّبعة الأولى 1934، ص198.

⁴ ابن حنبل (أحمد بن محمّد)، الجامع في العلل ومعرفة الرجال، إشراف محمّد حسام بيضون، مؤسّسة الكتب النّقائيّة، بيروت لبنان 1990، ج2 ص43؛ ابن خلّكان، المصدر السابق، ج2 ص227؛ الزّركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمتعزّبين والمستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، لبنان الطّبعة الرابعة عشر 1999، ج3 ص251.

⁵ ابن خلّكان، وفيات، مصدر سابق، ج2 ص229؛ السمّعاني، الأنساب، مصدر سابق، ص432؛ ابن الأثير، النّباب في تهذيب الأنساب، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت لبنان، سنة الطّبّع لم تذكر، ج2 ص198؛ الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج3 ص251.

⁶ ابن سعد، طبقات، المصدر السابق، ج6 ص255؛ البخاري، تاريخ، مصدر سابق، ج6 ص450؛ ابن كثير، البداية، المصدر السابق، ج3 ص288؛ ابن الجوزي، صفة الصّفوة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة الطّبعة الخامسة 1985، ص77؛ الذهبي، تاريخ، المصدر السابق، ج3 ص75؛ ابن الخياط، طبقات، مصدر سابق، ج3 ص288؛ الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج3 ص251.

وأبوه هو شراحيل ويقال له أيضا شراحين، ويذكر أحيانا بإسم عبد الله لكن الغالب اعتماده هو شراحيل¹. كان شراحيل من قرّاء الكوفة الذين شاركوا في حركة المختار الثقفي، ويبدو أنه قتل في هذه الثورة². وتنتمي أمّه إلى قبيلة همدان، وإسمها قبيلة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني. سبها القعقاع في وقعة جلولاء³. لم تحدّثنا المصادر عن أشقائه غير شقيقته وزوجة صديقه عبد الرحمن بن عبدالله بن الحارث أبو المصّب الهمداني الكوفي الشاعر الملقّب بأعشى همدان⁴. كان الأعشى صديق للشعبي، كما كان من ضمن القرّاء الذين شاركوا في الثورات ضدّ الدولة الأمويّة، وكثيرا ما استشهد الشعبيّ بشعره⁵ أثناء جلساته.

2. بناء العلماء على الشعبيّ :

يجمع العلماء على المكانة العلميّة التي حضي بها عامر بن شراحيل بين مناظريه في مختلف الميادين الفكرية التي زخرت بها فترته، فقد نشأ في بيئة هيّأته لأن يكون من ألمع علماء لما عرفته الكوفة من إزدهار فكريّ ونظرة تحليليّة لدين أصبح في مرحلة النضج.

صنّف الشعبيّ عند جلّ العلماء في مرتبة كبار التابعين⁶، وكلّ المصادر تؤكّد أنّه عايش وعاصر عدد كبير من الصحابة، فتذكر على لسانه أنّه عايش خمس مائة صحابي⁷، ويقول الذّهبيّ أنّه قصد بهذا الكلام المعاشية وليس الأخذ عنهم، ولكن وإن لم يأخذ أبو عمرو عن كلّ من عايشه فلا بدّ أن يكون أخذ عن الكثير منهم.

إنّ ما ميّز الشعبيّ عن غيره من الإخباريين، وما كرّرت المصادر ذكره في عديد المواضيع قدرته الخارقة على الحفظ التي كانت لديه وساعدته على التفرّد في علوم عصره التي تفرض هذه الملكة، إذ أنّه لم يكن يكتب شيئا ممّا يسمع، فقد كان إذا ألقى عليه شيء لا

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الخامسة 1985، ج 1 ص 21؛ ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمّد بن كرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1994، ج 3 ص 416؛ الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 3 ص 251.

² ابن حنبل، الجامع، مصدر سابق، ج 2 ص 43؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 3 ص 75؛ الشيرازي، طبقات، مصدر سابق، ص 81؛ الطبري، المنتخب، مصدر سابق، ج 6 ص 375؛ السمعاني، الأنساب، مصدر سابق، ص 431؛ السيوطي، طبقات، مصدر سابق، ص 32؛ ابن الخياط، المصدر السابق، ج 3 ص 288؛ ابن خلّكان، وفيات، مصدر سابق، ج 2 ص 227؛ الذهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 79؛ ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 246.

³ ابن حنبل، المصدر السابق، ج 2 ص 284؛ دائرة المعارف الإسلاميّة، العدد 20 ص 69.

⁴ الأصفهاني، الأغاني، تحقيق عبد الأعلى مهنا وسهير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان الطبعة الثانية سنة الطبع لم تذكر، ج 6 ص 41 - 42؛ ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج 3 ص 419.

⁵ الأصفهاني، المصدر السابق، ج 6 ص 41 - 42؛ الطبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 2 ص 674؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج 3 ص 419.

⁶ ابن الجوزي، أعمار الأعيان، تحقيق محمد محمود الطناجي، مكتبة الخانجي، القاهرة الأولى، 1994، ص 54؛ السمعاني، الأنساب، مصدر سابق، ص 431؛ ابن خلّكان، وفيات، مصدر سابق، ص 227؛ الذهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، م 1 ص 79؛ ابن الأثير، اللباب، مصدر سابق، ج 2 ص 198؛ الطبري، المنتخب، مصدر سابق، ج 6 ص 375؛ الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 3 ص 251.

⁷ ابن الجوزي، صفة الصّفوة، مصدر سابق، ج 3 ص 76؛ الذهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 70؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 2 ص 198.

يريد أن يعاد عليه مرّة ثانية¹. وقد أملى على أبي مسلم "كتاب الفتح" دون أن يعتمد على أيّ صحيفة²، وفي هذا الصّدّد ذكرت لنا المصادر حديث لعبدالله بن عمر يؤكّد تفرّد الشّعبيّ في أخبار المغازي إذ يقول "كأنّه كان شاهدا معنا ولهو أحفظ لها منّي وأعلم³.

ألّمّ عامر الشّعبيّ بكلّ أصناف العلوم فقد صنّفه كتب التّراجم في جميع المجالات من راوية⁴، ومحدّث⁵، وفقه⁶، ورغم نفي الشّعبيّ لهذه الصّفة الأخيرة عنه فإنّ علماء الطبّقات الطبّقات صنّفوه من أكبر الفقهاء ولقبوه بأبي الفقه⁷، فهو ثقة مشهور فقيه فاضل من الثّالثة⁸ على حدّ تعبير ابن حجر⁸، ويؤكّد العديد من العلماء تفوّقه وتميّزه في الفقه مثل أبي حصين، وأبي المجلّز⁹، وأنهم لم يرو قطّ أفقه منه في زمانه بل يذهب البعض الآخر، مثل داود بن أبي هند وابن سريّن، ومكحول، إلى تفضيله عن جميع العلماء من المعاصرين له وإعتباره هو عالم زمانه¹⁰. أمّا الزّهريّ فيجعل الشّعبيّ من العلماء الأربعة في زمانه إذ يقول: العلماء أربعة ابن المسيّب بالمدينة، والشّعبيّ بالكوفة، والحسن البصريّ بالبصرة، ومكحول بالشّام¹¹، في حين ابن عينيّة يجعل العلماء ثلاثة الشّعبيّ أحدهم¹²، لكنّ أبا أسامة يذهب إلى ترتيب الفقهاء ترتيباً تفاضليّاً جاعلاً أبا عمرو في المرتبة الثّالثة لا يسبقه غير عمر وابن عبّاس¹³.

أمّا في علم الحديث هو المحدّث الثّبت من رجال الحديث الثّقات¹⁴. قال أحمد العجليّ: مرسل الشّعبيّ صحيح لا يكاد يرسل إلّا صحيحاً¹⁵. وإضافة إلى كلّ هذه الميزات هو راوية ومقرض للشّعريّ فقد كان ابن سبع وسبعين وهو يقرض الشّعريّ¹⁶، وكلّ المصادر

¹. الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 70؛ السيوطي، طبقات، مصدر سابق، ص 32؛ الزركلي، المصدر السابق، ج 3 ص 251.

². الذّهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 86.

³. السيوطي، المصدر السابق، ص 32 . 33؛ ابن خلّكان، المصدر السابق، ص 228 . 229؛ الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 71؛ باقوت، معجم الأدياء، مصدر سابق، ج 4 ص 1476؛ الشّيرازي، طبقات، مصدر سابق، ص 81.

⁴. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 248.

⁵. الزركلي، المصدر السابق، ج 3 ص 251؛ دائرة المعارف، ج 14 ص 69.

⁶. الشّيرازي، المصدر السابق، ص 81.

⁷. ابن سعد، المصدر السابق، ج 6 ص 246؛ ابن الخياط، الطبقات، مصدر سابق، ج 3 ص 32؛ الذّهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 86.

⁸. ابن حجر، تقريب التهذيب، تحقيق محمّد عوّامة، دار الرّشيد سوريا حلب ودار القلم للطباعة، الطّبعة الأولى، لبنان 199، ص 287.

⁹. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 3 ص 75؛ السيوطي، المصدر السابق، ص 32 . 33؛ الذّهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 80.

¹⁰. ابن حنبل، الجامع في العلل، مصدر سابق، ج 2 ص 270.

¹¹. ابن خلّكان، وفيات، مصدر سابق، ص 227؛ الشّيرازي، طبقات، ص 81؛ ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج 3 ص 658.

¹². الذّهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 82.

¹³. الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 71.

¹⁴. الذّهبيّ، تذكرة، ج 1 ص 79؛ الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 3 ص 251.

¹⁵. الذّهبيّ، المصدر السابق، ج 1 ص 79؛ تاريخ، مصدر سابق، ج 6 ص 255.

¹⁶. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 255.

تصنّفه كراوية للشعر¹، لكنّ عامر الشّعبيّ ينفي عن نفسه رواية الشعر لكنّه يحفظه². وما يؤكّد لنا درايته بالشعر روايته عند مجالسته لعبد الملك بن مروان حين كان يسامره والتي كانت تتخلّلها العديد من الناظرات، والتي كان يتنافس فيها مع شعراء مثل جلسته مع الأخطل³، وتناظره مع الفرزدق⁴، وربّما كان هذا الموقف من الشعر لدى الشّعبيّ وليدة نظرة حيل بأكملة لأنّ الشعر لديهم مرتبط بالجاهليّة وتمّ إيلاء الأهميّة للعلوم الجديدة كالحديث والسيرة لأنها الرّكيزة الضامنة لتواصل دينهم. وكلّ هذا لم يمنع الشّعبيّ من أن يكون مطلعاً في الشعر حتّى أنّه إن لو أراد أن يقول الشعر شهراً لا يعيد فيه⁵. ولعلّ أجلّ قول يصف المحاسن العلميّة والمكانة التي احتفى بها كلام ياقوت إذ قال فيه: "كان الشّعبيّ أعلم خلق الله بأشعار العرب وأنسابها وأيامها، ووقائعها، وأمّا الفقه والأخبار النبويّة فكان أوحد زمانه وفرد أوانه"⁶.

كما أنّنا من ناحية ثانية يمكننا أن نكشف رأي العلماء في الشّعبيّ من خلال علاقته وتعامله معهم، فنجد إبراهيم النخعي يخشاه ويحترمه إذ يقول سلمة بن كهيل: "ما اجتمع الشّعبيّ وإبراهيم إلّا سكّت إبراهيم"⁷، ومن الأکید أنّ هذا التقدير ورائه تفوق الشّعبيّ على هذا الأخير وخاصة أنّ أبا عمرو يعيب على إبراهيم أنّه يسأله في الليل عن أمور ثمّ يفتي بالنهار⁸. أمّا أبو صالح فإنّه إذا مرّ به الشّعبيّ وهو يفسّر القرآن، يأخذ بأذنه ويقول له تفسّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن⁹، في حين أنّ أبا محمّد يخاف الوقوف في حلقة¹⁰. وهذا اعتراف صريح بعلم الشّعبيّ الذي يخاف أن يناظره فيه كلّ من عاصره. تأتينا الشهادة كذلك من المنافس الأكبر له الحسن البصريّ فقيه البصرة المركز الثاني للحياة الفكرية في النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، حيث يقول فيه حين توفي: "كان والله في ما علمت كثير العلم، عظيم الحلم، قديم السّلم من الإسلام بمكان"¹¹.

¹. ابن سعد، المصدر السابق، ج 6 ص 255؛ ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج 4 ص 1479؛ الطبري، المنتخب، مصدر سابق، ج 6 ص 376؛ الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 88.

². ابن الجوزي، صفة، ج 3 ص 75؛ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 71.

³. الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 24 ص 21 . 22 . 49 . 50.

⁴. نفس المصدر، ج 21 ص 378.

⁵. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 3 ص 75؛ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 70.

⁶. ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج 4 ص 1475.

⁷. الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 72؛ تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 79 . 80.

⁸. الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 95.

⁹. نفس المصدر، ج 1 ص 81.

¹⁰. نفس المصدر، ج 1 ص 83 . 84.

¹¹. ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 256؛ الثيرازي، طبقات، مصدر سابق، ص 81.

من ناحية ثانية نستشف ثناء العلماء ورجال الأمور على علم الشَّعبيّ من خلال تقليده بعدد الوظائف، ففي مرحلة أولى تمّ تكليفه من قبل الحجاج كعريف لقبيلة لتسوية أمورها لأنّه وجده عالماً بأنسابها. ثمّ بعد ذلك كتب للعديد من الأمراء والولاة، فكان كاتباً لعبد الله بن المطيع العدوي، وكتب لعبدالله بن يزيد الخطمي عامل ابن الزبير. وأعجب قتيبة بن مسلم بعلمه ودرايته بالمغازي والفتوح فاستعمله ككاتب لديه¹. كما إستقضاه عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطّاب والي عمر بن عبد العزيز على العراق²، العراق²، وكان ابن هبيرة طلب منه أن يسامره ويقضي إلّا أنّ الشَّعبيّ إعتذر³. وحضي بجليل القدر من رأس السّلطة الأمويّة فكان نديم وسمير عبد الملك بن مروان⁴، مروان⁴، الذي كان يشترط في جلسه أن يكون عالماً بالحلال والحرام عارفاً بأشعار العرب العرب وأخبارها ليصيب الاستئناس والمعرفة، وقد أعجب هذا الأخير بالقدرة العلميّة والذكاء الذي تميّز به الشَّعبيّ لذلك اعتمد عليه في مهام سياسيّة فأوفده إلى أخيه عبد العزيز ليصرف نظره عن الخلافة وإلى ملك الروم الذي أعجب كذلك بسعة علمه⁵، ورغم أنّ أبا عمرو ممّن خرج على الحجاج مع ابن الأشعث إلّا أنّه عفا عنه تقديرًا لعلمه ومكانته.

إنّ كلّ من ذكر الشَّعبيّ نثّه إلى الأهميّة العلميّة لهذا الشخص، فقد منح تقدير العامّة والخاصّة من أطراف مجتمعه إلّا أنّ ذلك لا ينفي أنّ العديد وخاصّة من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه وأسلوبه العلميّ آخذت عليه عديد ال مآخذ خاصّة في عدم اجتهاده والقول برأيه وموقفه الرافض لعلم الكلام⁶، لذلك كان من الضروريّ البحث في أسلوب تعامله مع علوم عصره.

1. ثنائية النجديّة والمحافظة :

1. دور الشَّعبيّ في تكوين جذور الكتابة وناسيس المعرفة التاريخيّة :

أنّث الشَّعبيّ لنفسه طريقاً منفرداً عن أبناء جيله. فرغم معاصرته لمؤسّسي المدرسة المدنيّة، إلّا أنّه لم يكن له آثار في هذه المرحلة. كما أنّه اقتصر على رواية الحديث، ولم

¹. ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج 6 ص 1475؛ دائرة المعارف، ج 14 ص 6270.

². ابن سعد، المصدر السابق، ج 6 ص 256؛ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 75؛ الجاحظ، البيان، مصدر سابق، ج 1 ص 39؛ ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 1 ص 916. 930؛ الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 3 ص 251.

³. ياقوت، المصدر السابق، ج 4 ص 1475؛ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 75؛ تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 88.

⁴. الزركلي، المصدر السابق، ج 3 ص 251.

⁵. ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج 4 ص 1477؛ ابن خلكان، وفيات، مصدر سابق، ج 2 ص 227؛ الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 85.

⁶. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 251؛ الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 85؛ تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 74.

يكن يَحْبُذُ الإِكْتَارَ منه. وكان يقول: "لو التقيت بالحسن البصريّ لمنعته من قول: "قال صلّى الله عليه وسلّم". يمكننا أن نعتبر الشّعبيّ ينتمي إلى هذه المرحلة زمنياً فقط، وهذا لا يعني أنّ حضوره ومشاركته كانت منعدمة.

ارتقى الشّعبيّ من هذه المرحلة إلى مرحلة جديدة "ولعلّ السبب في ذلك أن السيرة كانت قد استكملت المعارف عنها واستنزفت كافة المصادر والمعلومات المتعلقة بها، وانتظمت في كتب معرّفة بينما وجد الإخباريون ميادين أخرى لفعاليتهم الفكرية والثقافية ما تزال بكرًا، ومواضيع ممّا يهمّ الناس اقتصادياً وسياسياً وإجتماعياً لم تطرق"¹. كما كان لتنافس بين القبائل العربية تأثير على توجهات كلّ منها. وإن استحوذت القبائل المدنية على السيرة والمغازي معتبرة لها ملكاً وموروثاً خاص، فإنّه كان لابدّ للقبائل الجنوبية أن تجد لنفسها متنفساً ينعش مكانتها التي ما فتئت تتراجع.

لم نثر في الحقيقة على دليل ماديّ لإنتماء الشّعبيّ لمرحلة من مراحل التدوين عند العرب، لكنّ تقصّي أثره كان يسير من خلال النّف التي تركها، وتلقّفها أجيال من تلاميذه تنافسوا في حفظها وإيصالها. ولقد جعل هذا الجيل من الخبر مادّة حيويّة غذّت البذرة الأولى لحضارة بكاملها.

تسمّ الخبر عند شيخ الإخباريين شكلاً بصفتين إمّا مختصراً أو مطوّلاً. وتهمّ الأخبار المختصرة تلك التي لم يعايشها الشّعبيّ. والتي إتخذت شكلاً ملخّص ملىّ للقصة التي يرويها ومثال ذلك خبر بداية الخلق وخلق الله لآدم²، أو خبر بداية التأريخ عند العرب في أيام عمر بن الخطّاب³. ويضمّ هذا النوع أيضاً أخباره في الفقه وتفسير القرآن على سبيل المثال "«وعدوا على حرد» (القلم 27)، أي غضب على المساكين⁴.

أمّا الأخبار المطوّلة عموماً، فهي تضمّ تلك التي عايشها أو التي أحيانا يكون حاضراً ومشاركاً في أحداثها. وتتخلّل هذه الأخبار المقاطع الوصفية الدّقيقة. مثل خبره عن مصعب بن الزبير وعائشة بنت طلحة⁵، وأيضاً خبره عن دخوله على بشر بن مروان⁶، وهو خبر يتحدّث فيه عن أدقّ التفاصيل.

¹. شاكر (مصطفى)، التّاريخ العربي والمؤرّخون: دراسة في تطوّر علم التّاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، مصر الطّبعة الثّانية 1970، ص96.

². الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج1 ص 49 . 50.

³. نفس المصدر، ج1 ص 355.

⁴. إبن كثير، البداية، مصدر سابق، ج1 ص460.

⁵. الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج5 ص138.

⁶. نفس المصدر، ج2 ص 342 . 343 . 344.

إِعْتَمَدَ الشَّعْبِيُّ كَذَلِكَ عَلَى الْمَوْرُوثِ الْحَضَارِيِّ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ فِي تَأْثِيثِ خَبْرِهِ لِتَكْتَمِلَ صَوْرَتُهُ، وَيَمْنَحَهُ بِذَلِكَ الْوَاقِعِيَّةَ وَمَلَامَسْتَهُ لِلْحَدِثِ لِحِظَةِ وَقُوعِهِ. وَكَانَ الشَّعْرُ فِي صَدَارَةِ مَا إِعْتَمَدَ الشَّعْبِيُّ، وَذَلِكَ لِأَهْمِيَّةِ الشَّعْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْذُ قَبْلِ الْإِسْلَامِ حَتَّى أَنْ حَضَارَتِهِمْ تَكَادُ تَكُونُ قَائِمَةً عَلَيْهِ. وَأَعْتَمَدَ هَذَا الْغَرَضُ لِلتَّعْبِيرِ عَلَى كُلِّ جَوَانِبِ حَيَاتِهِمْ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ كَمِثَالِ الْخَبْرِ التَّالِيِ الَّذِي يَبْدَأُهُ صَاحِبُهُ بِالشَّعْرِ وَيَنْهِيهِ بِشَّعْرٍ أَيْضًا، وَهُوَ خَبْرُ يَرْوِي حَادِثَةَ مَقْتَلِ أَوْفَى بْنِ حِصْنِ الطَّائِيِّ عَلَى يَدِ زِيَادٍ. فَيَدْمِجُ لَنَا الشَّعْرَ الَّذِي قَالَهُ أَوْفَى لَزِيَادٍ أَثْنَاءَ مَطَارِدَتِهِ لَهُ فَيَقُولُ :

إِنَّ زِيَادًا أَبَا الْمَغِيرَةَ لَا يَعَجَلُ وَالنَّاسَ فِيهِمْ عَجَلَةٌ

خَفْتِكَ وَاللَّهِ فَأَعْلَمَنَّ حَلْفِي خَوْفَ الْخَفَافِيشِ صَوْلَةَ الْأَصْلِ

فَجِئْتُ إِذَا ضَاقَتِ الْبِلَادُ فِيهِمْ يَكُنْ عَلَيْهَا الْخَائِفُ وَأَلَّهُ

وَيَخْتَمُ بِشَعْرِ قَالَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَمَّامِ السَّلُولِيِّ:

حَيْبَ اللَّهِ سَعِي أَوْفَى بْنِ حِصْنٍ حِينَ أَضْحَى فَرُوجَهُ الرَّفَاءِ

قَادَةَ الْحَيْنِ وَالشَّفَاءِ إِلَى لَيْثِ عَرِينِ وَحِيَّةِ صَمَاءِ¹

أَمَّا اللَّوْنُ التَّانِي مِنَ الْمَوْرُوثِ الْحَضَارِيِّ، وَالَّذِي ازْدَهَرَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ لِلْهِجْرَةِ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّعْبِيُّ لِتَثْمِينِ خَبْرِهِ، هُوَ فَنُّ الْخُطَابَةِ الَّذِي دَعَّمَ بِهِ خَبْرَهُ مِثْلَ خُطْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ فِي خَبْرِهِ عَنِ قُدُومِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَمَحْتَوَاهَا الْآتِي "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ، طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتَلَوْا عَلَيْكَ نَبَأَ مُوسَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَفْسُودِينَ . وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ - وَنَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْحِجَازِ - وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ - ."

نَلَاخِظُ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ أَمَدَّتْنَا بِصُورَةٍ حَقِيقِيَّةٍ مَلَاصِقَةٍ لِلْحَدِثِ، فِإِضَافَةٍ إِلَى كَلَامِ ابْنِ الزَّبِيرِ لَمْ يَبْخُلْ عَلَيْنَا بِالْإِشَارَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا، حَتَّى نَكَادُ نَصْبِحُ مَشَاهِدِينَ لِلْحَدِثِ مَبَاشِرَةً. أَمَّا الرَّسَائِلُ الَّتِي كَانَ حُضُورُهَا أَسَاسِيًّا فِي التَّعَامُلَاتِ بَيْنَ الْعَرَبِ، لَمْ تَغْبِ عَنِ الْمَدُونَةِ الْإِخْبَارِيَّةِ لِلشَّعْبِيِّ بَلْ كَانَ إِعْتِمَادُهَا مَكْتَفًا. نَذَكُرُ مِنْ بَيْنِ الْأَمْثَلَةِ الرَّسَالَةَ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى أَهْلِ الْمَدَائِنِ وَهِيَ كَالآتِي: "مَنْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةَ

¹. نفس المصدر، ج 3 ص 968.

أهل فارس، سلام على من إتبع الهدى أمّا بعد، فالحمد لله الذي فضّ خدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم وإنّه من صلّى صلاتنا وإستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا، أمّا بعد، فإذا جاءكم كتابي فأبعثوا إليّ بالرّهن، وإعتقدوا منّي الذّمة، وإلّا فوالذي لا إله غيره لأبعثنّ إليكم قوما يحبّون الموت كما تحبّون الحياة¹. ونجد وثيقة أخرى هامّة وهي رسالة نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان تنبّهه للأخذ بثأر عثمان بن عفّان. وتكمن أهميّة هذه الوثيقة في صدورها من طرف هامّ في هذه الحادثة، إضافة إلى كونها عنصرا شاهدا لأحداث قتل الخليفة، وهي تقدّم رواية لأحداث الواقعة كاملة حيث قالت: "وإنّي أقصّ عليكم خبره لأنّي كنت مشاهدة أمره كلّهُ"²، وهي رواية من الطّرف الأموي التي يمكننا من خلالها تحقيق الروايات الأخرى المناهضة لها.

إكتسى الخبر في مدوّنة الشّعبيّ طابعا خاصّا به، فكان متكاملا متناسقا يطرح لنا قصّة يروي أحداثها في مجموعة أخبار قصيرة متتالية يحترم فيها أركان الحدث الذي يرويه. وقد إعتد الشّعبيّ أسلوب سردي خبري، كثيرا ما تتخلّله الفواصل الحوارية يكون أبطالها الشّخصيات موضوع الخبر، وبالتالي يعطينا الخبر موضوع الحدث مباشرة على لسان صاحبه لا على لسان السّارد. وهذا الأسلوب تقوم فيه مراحل الرواية على التّتالي الزّمني الذي يمنح الخبر الواقعيّة ويجعله في صورة قريبة من واقعه فيكون من السّهل على المتقبّل فهمه وإستساغته. ونستدلّ على إحترام الشّعبيّ للتّتالي الزّمني في أخباره ببعض الأمثلة نذكر منها خبره عن عمليّة التّاريخ عبر الحقبات التّاريخية فيقول "أرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم عليه السّلام إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل، ثمّ أرّخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتّى تفرّقت فكلّما خرج قوم من تهامة أرّخوا من خروجهم، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرّخون من خروج سعد ونهد وجبينة بني زيد من تهامة حتّى مات كعب بن لؤي، فأرّخو من موت كعب بن لؤي إلى الفيل فكان التّاريخ من الفيل حتّى أرّخ عمر بن الخطّاب من الهجرة، وذلك سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة"³، فهكذا يظهر إحترام التّسلسل الزّمني جليّا حيث يضمن صحّة وواقعيّة الخبر، كما يظهر لنا وعي الشّعبيّ وإدراك الحقيقة التّاريخية وأهمّيّتها.

1. الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 2 ص 560.

2. نفس المصدر، ج 16 ص 351-352-353.

3. الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 1 ص 356.

يعتبر الشَّعْبِيُّ شاهد القرن الأوَّل بلا منازع فقد ولد منذ العشريَّة ال ثانية للقرن، وهذا الامتداد الزمَّني لفترة حياته ساعد على ثراء مدوَّنته الإخباريَّة، حيث لم تكن ذات الموضوع الأوحد. لم يكتف الشَّعْبِيُّ برواية الحديث والسنة والمغازي، بل تنوعت مواضيع خبره، لكنَّها كانت مطبوعة باللون السياسي فجَّهَّها تروي أحداث سياسيَّة.

ساعد النسق السَّرِيع لتغيُّر الأحداث وسيران عجلة التاريخ، وضخامة أحداث الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة، وخاصَّة منها أحداث التَّوسُّع في المجال على إثره الخبر لدى الشَّعْبِيِّ. أصبحت أخبار الفتوح شاغل الشَّعْبِيِّ، خاصَّة مع مشاركة القبائل في هذه العمليَّات، واستقرارها في الأماكن المفتوحة حديثاً.

عادت النزعة القبليَّة شيئاً فشيئاً لظهور من جديد مع عمليَّات الاستقرار وفترة الهدنة في الفتوح، التي تزامنت مع مرحلة تكوين الدَّولة الإسلاميَّة وإرساء هيكلها. ولقد أعطى ذلك دفعا كبيرا في توجيه اهتمام المخبرين وخاصَّة منهم الشَّعْبِيُّ الذي وجد في مصره موضوع لخبره من بداية فتحه إلى تمصيره، واستقرار القبائل ثمَّ الأحداث التي مرَّت به والتناحر السياسي بين الأطراف الآهلة له. وتوسَّعت حلقة الاهتمام إلى الأمصار المجاورة في إطار المقارنة والتباهي بالانتماء الاجتماعي والجغرافي لدى كل فرد.

إنفرد الشَّعْبِيُّ عن غيره من أبناء حيله ببعض المواضيع في أخباره التي كادت تكون حكرا عليه في تلك الفترة منها المواعظ والحكم التي إزدانت بها أخباره في عديد المصادر، فنجد الشَّعْبِيُّ يقول من **‘أكرم أمر الله فإنه أكرم الله’**¹. وينصح الشَّعْبِيُّ بالصدق فيقول: **‘عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرُّك، فإنه ينفعك وإجتنب الكذب في موضع ترى أنه ينفعك فإنه يضرُّك’**²، كما نجد لديه نتاج تجارب السنين من حكم وأقوال وثيرة حيث يقول: **‘لا يكون البكاء إلا من فضل فإذا اشتدَّ الحزن ذهب البكاء وإنشد’**³، أو قوله في أصل تسمية الهوى **‘قيل هوى لأنه يهوي به’**⁴. ووجدنا له نوعا طريفا من الأخبار خلَّفته طبيعته المرحة حيث عرف بالطرفة والمزاح، فكانت له العديد من الأخبار تروي أخبار فكاهية أو أحداث مضحكة حصلت له وأمثلة ذلك عديدة منها أن رجل سأل الشَّعْبِيُّ: **‘ما**

¹. نفس المصدر، ج 2 ص 124.

². الجاحظ، البيان، مصدر سابق، ج 1 ص 199.

³. ابن عبد ربه، العقد، مصدر سابق، ج 2 ص 152.

⁴. نفس المصدر، ج 2 ص 80.

إِسْمُ امْرَأَةٍ إبليس؟ فقال: ذاك عرس ما شهدته¹، إلى غير ذلك من هذه الأنواع الجديدة من الأخبار التي لم نعرفه من قبل.

توجّه سكان الأمصار إلى اتجاه جديد من الأخبار مختلف عن أخبار المدارس الأخرى مثل مدرسة المدينة التي إقتصرت على السيرة ومغاز. وكان الإختلاف بينهما في لبّ ومضمون الخبر فقد أخذ إخباريو هذه المرحلة الإتجاه القبلي بل يكون أوسع من ذلك إلى الإنتماء الإقليمي. كما إختلفوا عنهم كذلك في قواعد رواية الخبر لأنهم تساهلوا في ضبط السند رغم أن هذا الكلام لا ينطبق تماما عن الشعبيّ لأنّه إهتمّ بالسند وكذلك لأنه شاهد عيان لأغلب رواياته.

وما نستخلصه من كلامنا أنّ جذور مدرسة الكوفة قد ظهرت من هنا مع هذا الجيل الأوّل من الإخباريين وعلى رأسهم عامر بن شراحيل الذي كان له الفضل في بناء الأسس الأولى لهذه المدرسة.

2. موقفه من علم الكلاخ وجملة الإنجاهات الفكرية :

تغيّر وضع المجتمع الإسلامي بشكل دءوب وسريع، واكب في ذلك تغيّر الظروف وتجدّد الأحداث. وإنّ هذه الوضعيّة الجديدة كانت محلّ تساءل العرب المسلمين لأنّها أفرزت مستحقّات وحاجيّات جديدة، ممّا إستوجب منهم إجتهد لخلق حلول وتفسيرات لتسهيل الحياة العامّة.

ظهر لدى العلماء بما يسمّى بالقياس والاجتهاد في ما ورثوه من أحكام من السنّة والكتاب، فكان للتابعين والمسلمين الأوائل الحفاظ دور أساسيّ لإنجاح هذه الحركة بإعتبارهم المرجعيّة الأساسيّة لهذا العلم. لذلك نتساءل عن دور الشعبيّ في هذه الحركة وهل كان من المشاركين فيها؟ وما هو أسلوب تعامله مع علوم عصره وخاصةً تعامله مع العلوم التي نبغ فيها؟

حضا الحديث بالنصيب الأكبر من مدوّنّة الشعبيّ، فقد أخصينا له أكثر من 90 حديث. كوّن لنا مدوّنّة علميّة خدمت الدوّلة الإسلاميّة وساهمت في إنجاح الحياة الفكرية فيها، لكن ما ينبغي ذكره أنّ الشعبيّ لا يحبّ الإكثار من الحديث أسوة بسنّة سلفه. ذكر البيهيم بن عدي عن مجالد بن سعيد حديث للشعبيّ يقول فيه: "كره الصّالحون الأوّلون الإكثار من الحديث ولو إستوفيت من أمري ما إستدبرت ما حدّثت إلّا بما أجمع عليه أهل

1. الذهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 75.

الحديث¹ ومضمون هذا الكلام أنَّ الشَّعْبِيَّ قد تَفَطَّنَ إلى ما يجب أن يكون في الحديث من قواعد يُحتذى بها لجعل هذه المادَّة خالية من ما قد يشوبها من عدم مصداقيَّة والحدِّ من الأحاديث الموضوعية. وهنا يمكن أن نقول أنَّ هذه البوادر هي الجذور الأولى التي دفعت إلى إكتشاف عديد العلوم مثل التَّثبت في السُّنَد والجرح والتَّعديل.

يعتمد أبو عمرو في طريقة نقله للحديث على الحرص على إيصال المعنى الصَّحيح ولا يهتم بحفظ الحديث، بل كان يرى من الضَّروريِّ إعراب الحديث ولا ينبغي إعادته كما هو لتفادي الوقوع في المزالق. فالناقل يمكن أن يقع في الخطأ سواء كان الحديث مكتوباً أو مسموعاً فيمكن أن يكون الخطأ كامن في عمليَّة النَّسخ أو في النَّطق أو السَّماع ممَّا يقلب المعنى إلى الضدِّ في ما كان يرمي إليه. كان الشَّعْبِيَّ يقول: **لأنَّ أقرأ وأسقط أحبُّ إليَّ من أن أقرأ وألحن**². ورغم ما عرف به من قدرة على الحفظ، فإنَّه غير متشدِّد في السَّماع أي كيف سمع الكلام ونقله وإنَّما يتشدِّد في المعنى أي أن لا يروي الحديث بدون المعنى الذي يحتويه إذ يقول فيه ابن عون أنَّه **يحدِّث الحديث بالمعاني**³، كما يصنِّفه ضمن الثَّلاثة من العلماء المتساهلون في المعاني. والتَّساهل في المعاني لا يعني تغيير الحديث في حدِّ ذاته، وإنَّما إعرابه وتصحيحه لإصابة المعنى. ولا يتشدِّد الشَّعْبِيَّ في السَّماع⁴ بمعنى لا يتشدِّد في نقل الحديث كما سمع أو حدِّث به.

تَّبِع أبو عمرو أسلوب جديد في التَّعامل مع مادَّة أخباره وأحاديثه، وجعل له قواعد إحتذى بها العلماء في فترة متأخِّرة. وأصبحت هذه المحاولات الأولى قواعد لا يمكن إختراقها ليوصف الراوي بالثَّقة. إلاَّ أنَّه على عكس ما يتوقَّع فقد كان رافضاً لمسألة الإجتهد والقول بالرَّأي أي علم الكلام، حيث رفض هذا العلم رفضاً تاماً. ويقول ابن سعد أنَّ الشَّعْبِيَّ كان يذمُّ الرَّأي ويفتي بالنصِّ. وذكر مجالد بن سعيد قال: **سمعت الشَّعْبِيَّ يقول لعن الله أرايت**⁵، أي علم الرَّأي فهو يرفض أن يقول برأيه في قضيَّة من القضايا العقائديَّة والفقهية التي تعترض المسلمين. ولا يعتبر الشَّعْبِيَّ نفسه عالماً أو فقيهاً حتَّى يحقَّ له إبداء رأيه والتَّحليل والتَّحريم. كما يرفض مبدأ القياس الذي يعتمد عليه العلماء المعاصرين له ويبرِّر موقفه بأنَّ الفقيه **من إذا علم عمل**⁶. تذهب بنا كلمة عمل إلى التَّفكير في أنَّ

¹. الذَّهبي، تذكُّرة، مصدر سابق، ج 1 ص 84.

². ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج 1 ص 28.

³. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 250.

⁴. ابن الأثير، اللُّباب، مصدر سابق، ج 2 ص 322.

⁵. الذَّهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 74.

⁶. ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 250؛ الذَّهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 74، تذكُّرة، مصدر سابق، ج 1 ص 85.

الشَّعْبِيَّ يقصد بها العمل على إصلاح الواقع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر¹ وهذا المبدأ من أصول المعتزلة، لكنّه كان لا يمكنه تحقيق ذلك في ظلّ سيطرة العائلة الأمويّة على الحكم.

يقول محمّد بن عبد الرّحمن بن أبي ليلى، وهو تلميذ الشَّعْبِيَّ، "كان الشَّعْبِيَّ صاحب آثار وكان إبراهيم صاحب قياس"²، ويتفق معه ابن عون في هذا الكلام حين يصف الشَّعْبِيَّ بالإنبساط لكنّه منقبضا في الفتوى عكس إبراهيم النخعي الذي عرف بكثرة فتواه³.

فسر الشَّعْبِيَّ موقفه من القياس حيث يمثله بالديّة في قتل شخص التي لا تتغيّر حسب قيمة الشَّيْخ العلميّة أو مكانته الاجتماعيّة، فيقارن بين ديّة الأحنف بن قيس وديّة طفل صغير وبالتالي فقد خيّر إذا سئل عن شيء ليس له في علم أن يقول لا أدري⁴.

لم يبغض الشَّعْبِيَّ فقط علم الكلام إنّما كذلك أهل هذا العلم، فكان يكره مجالسة علماء الحديث وعلماء الرّأي. ويقول في جلسة له مع أصحابه ورفقاء إنتقوه أنّ هذه الجلسة أحبّ إليه من "مجالسة أصحاب الحديث البغضاء"⁵، ويتمنّى أن ينفلت من الدّنيا كفافاً⁶، لأنّه في مثل هذه المجالسات يخاف أن يخطئ وبالتالي يضيع آخرته.

أغلب من برز في مثل هذه العلوم في تلك الفترة هم من الموالي المسلمين، الذين أسلموا واستقرّوا في الأمصار وخاصة البصرة والكوفة. لعب هؤلاء دور كبير في إزدهار الحياة الفكرية بالعراقين من خلال التناظر والتناظر بين علماء هذان المصرا. نذكر من العلماء الموالي الذين برزوا في تلك الفترة الحسن البصريّ، وهو من أكبر العلماء وفقهه البصرة والمنافس الأوّل للشَّعْبِيَّ. كان هذا الأخير يبغض الموالي ويصفهم بالصعاصفة أو بني أستها، ويذكر صالح بن مسلم وعبدالله بن أبي السّفر أنّ الشَّعْبِيَّ قال: "بغض إليّ هؤلاء (الموالي) المسجد حتّى تركوه أبغض إليّ من كناسة داري" وهذا دليل على مدى كرهه لهم.

كما ينصح الشَّعْبِيَّ تلاميذه بعدم أخذ العلوم عليهم إذ يقول: "ما قالوا لك برأيهم قبل عليه وما حدّثوك عن أصحاب النّبيّ (ص) فخذ به"⁷. ويظهر لنا موقفه من الموالي كذلك من

¹ ابن المرتضى (أحمد بن يحيى)، طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة دي قلد قلزر، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، سنة الطبع لم تذكر، ص139.

² الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج3 ص72؛ تذكرة، مصدر سابق، ج1 ص83.

³ الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج1 ص85.

⁴ ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج6 ص250؛ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج3 ص71.

⁵ الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج1 ص87؛ ياقوت، معجم الأديباء، مصدر سابق، ج4 ص1479.

⁶ الذهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج3 ص74.

⁷ ابن سعد، المصدر السابق، ج6 ص251.

خلال معاملته لتلاميذه، فنجده يكرم العرب ويحتقر الموالي، عن علي بن حرب قال: 'حدثنا ابن ريان، أو غيره قال: قيل للأعمش لم لم تخبر عن الشعبي؟ قال: كان يحقرني وكنت آتية مع إبراهيم، فبرحبت به ثم يقول لي أقعد قصر أيها العبد ثم يقول:

يرفع العبد فوق سيده مادام فينا بأرضنا شرف¹

ويندرج هذا في إطار التنافس بين المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب، حيث شهد أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني موجة كبيرة برز فيها عديد الشخصيات التي تنادي بالشعوبية ضد التعصب للعرب. ومما زاد هذا التيار انتشاراً أن نسبة كبيرة من العلماء والفقهاء هم من الموالي، ويبدو أن أبا عمرو كان متحمساً جداً للعرب ومبغضاً للشعوبية، وهو ما يمكن أن نستخلصه من خلال ما درسنا من مواقف له في الحياة الفكرية لمجتمعه وما تضمنته من روح نقدية لكل مستجدات هذه الفترة. فهل سينعكس هذا على موقفه السياسي وهل سيتعايش مع السلطة وهو من الأفراد الفاعلة في المجتمع؟

II. ثنائية الشيع والاعترال :

1 . مذهب عامر بن شراحيل وموقفه من السلطة :

يكتشف الناظر في حياة الشعبي، من خلال كتب التراجم أو المصادر الأخرى التي أوردت أخباره، أن ميله الفكري والمذهبي مرّ بطورين أساسيين عكس لنا من خلالهما التطور التاريخي والفكري لدولة الإسلامية في قرنها الأول.

يبدو أن تكوين الشعبي كان على يد أصحاب علي بن أبي طالب، ففي حديث لمجالد بن سعيد ذكر أنه تعلم عنهم ومنهم الحارث الأعور، وابن صيرة، وصعصعة بن صرحان، ورشيد الهجري². يمكن إعتبار الشعبي من الأوائل الذين تأثروا بالتيار العلوي ولعل خير دليلنا على ذلك مشاركته في الثورات الشيعية ضد السلطة الأموية لأنها حدث تاريخي صريح ودليل قطعي على إنتمائه الشيعي. شارك الشعبي في ثورة المختار الثقفي³ بل كان كان الداعية لهذه الحركة، وقد ساهم في إقناع إبراهيم بن الأشتر تبني الثورة عسكرياً فيقول: 'كتمته (إبراهيم الأشتر) ما في نفسي من إتهامهم، ولكنني كنت أحب أن يخرجوا

¹. وكيع، (ابن حبان محمد بن خلفان)، أخبار القضاة، عالم الكتب بيروت، لبنان سنة الطبع لم تذكر، ج 2 ص 421.

². الذهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 84.

³. المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قسي، وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن وائل بن هوازن. أنظر: البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)، أنساب الأشراف، تحقيق وتقديم سهيل زكار ورياض زركلي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1996، ج 6 ص 375.

للأخذ بثأر الحسين وكنت على رأي القوم¹. كان حضوره بارزا منذ أوّل معارضة للخلافة الأمويّة في زمانه، بل كان عنصرا أساسيا في هذه الحركة فقد تولّى تحفيز المشاركين هو وأبوه شراويل بعد إنضمامهما إلى شيعة المختار الذي إعتد عليه ليكون ضمن الوفد لإقناع إبراهيم الأشتر بقيادة الحركة لبناء قاعدة عسكريّة للحركة. يكشف لنا الشّعبيّ في هذا الصّدق أنّ المختار الثّقفي إستغلّ الدّعوة للأخذ بثأر الحسين بن علي لتعبئة صفوفه وإنجاح ثورته معتبرا نفسه مكلفا من قبل محمّد بن علي ابن الحنفية²، فأضفى بذلك صورة شرعيّة لحركته. نجح هذا الوفد في إقناع ابن الأشتر بتبني هذه الثورة ودعمها، إذ يقول الشّعبيّ متحدثا عنه 'تأخّر عن صدر الفرائش وأجلس المختار عليه وبايعه³.

كان الشّعبيّ في هذه الحركة يحمل كتاب المختار الثّقفي⁴، الذي من الممكن أن يكون هو كاتبه بما أنّه كبير القراء وفقيههم، وما يدعم هذا الشكّ أنّ الشّعبيّ شغل الكتابة عديد المرّات. تخلف الشّعبيّ عن شهادة القراء بصدق المختار لكنّه حين سألّه ابن الأشتر عن ذلك لم يجب إجابة صريحة بل أجابه بأنهم من كبار القراء ولا يمكن أن يقولوا غير الصّدق⁵. ومن الواضح لنا أنّ الشّعبيّ كانت غايته الأخذ بثأر الحسين، ولم يكن مأخوذا بدعوة المختار لا فكريّا ولا شخصيا، لأنّه لم يكن مقتنعا بإيديولوجيا هذه الحركة كما ذكرنا سابقا.

كان الشّعبيّ يعيب على المختار قوله بالوحي وقد إكتشف كذبه من خلال تنبؤه الخاطيء بحدوث الوقعة بنصيب⁶ في حين أنّها وقعت بالموصل. دار حوار بين الشّعبيّ والأحنف بن قيس حول تنبأ المختار، وقد أخرج الأحنف للشّعبيّ صحيفة للمختار يصرّح فيها بأنّه رسول الله إذ يقول: 'وقد بلغني أنّكم تكذبونني فإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي'⁷. وفي نفس السياق ذكرت بعض المصادر حوار دار بينه وبين الأحنف أيضا فحواه أنّ هذا الأخير كان يخاطبه بصفته شيعي فيقول له أنقذناكم من عبيدكم يعني المختار الثّقفي وأصحابه فيردّ الشّعبيّ ببيتين من شعر أعشى همدان :

أفخرتم أن قتلتم أعبدا وهزمتم مرّة آل عدل

¹ الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج3 ص1123؛ ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج3 ص294.

² ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج3 ص293.

³ ابن الأثير الكامل، مصدر سابق، ج3 ص750.

⁴ الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج3 ص1123.

⁵ ابن الأثير، المصدر السابق، ج3 ص751؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج3 ص294.

⁶ ابن كثير، المصدر السابق، ج3 ص309-310.

⁷ نفس المصدر، ج3 ص303.

فإذا فاخرتم ولنا فأذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل

لم يواصل الشَّعبيّ تحالفه مع المختار في هذه الثورة بعد إكتشافه كذبه فخرج إلى الحجاز هرباً منه¹، حيث توَّعده إن لم يؤمن سيرى العذاب الأليم². وإن كان حماس الشَّعبيّ كبيراً للأخذ بثأر الحسين فإنَّ مشاركته لم تدم طويلاً هذا ما لم يلفت إنتباه السُّلطة الأمويَّة أو ربَّما تغاضت عن مشاركته بعد إبتعاده عن هذه الثورة.

قال الشَّعبيّ: **نعم الشَّيء الغوغاء يسدُّون السَّبيل ويضنون الحريق ويشغبون على ولّاة السُّوء³**، ومن خلال هذا الكلام يظهر لنا موقفه من ولّاة زمانه ورغبته في التَّشويش عليهم والإطاحة بهم، فهو لو كانت له قوَّة لما قمت لأحد معه قائمة⁴. نصَّب الشَّعبيّ منذ قدوم الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي إلى الكوفة، عريفاً على قبيلة همدان ومسئولاً على أمورها كما أرسله إلى رتبيل ملك الرُّوم، فكان عنده بأشرف منزلة⁵. لكنَّ الشَّعبيّ سرعان سرعان ما خرج عليه مع عبدالرحمن بن الأشعث الملقَّب بالأشعث بن قيس، وكان ذلك سنة واحد وثمانين للهجرة⁶. أرسل الحجَّاج ابن الأشعث على رأس جيش لمحاربة رتبيل، وكان هذا الجيش يعدُّ أربعين ألف مقاتل من الكوفة عشرون ومثلها من البصرة⁷. كانا هذان الطَّرفان على عداوة كبيرة حتى أنَّ الحجَّاج كان يقول إذا رأيت ما أردت إلّا قتله، وقد وصل ما يدور بخاطر الحجَّاج إلى ابن الأشعث عن طريق الشَّعبيّ وهو ما أوجَّ نار العداوة بينهما⁸، ولم يكلفه بهذه المهمَّة إلَّا لثقتة العسكريَّة به. إستغلَّ ابن الأشعث هذه هذه الفرصة للإطاحة بغريمه، ولم يفوَّت الشَّعبيّ أيضاً هذه الفرصة ليكون على رأس هذه الثورة، فإهتمَّ بالدَّعوة لتعبئة صفوف المشاركين وحملهم على القتال خاصَّة وأنَّ الحلقة الأولى من أنصار ابن الأشعث كانوا من القرَّاء من بينهم جبلة بن زحر وابن قيس، وأيضا الأعرشيُّ الشاعر زوج أخت الشَّعبيّ الذي قتله الحجَّاج بعد إخمد الثورة.

كان الشَّعبيّ يقول: **أيها النَّاس قاتلوهم ولا يأخذكم حرج في قتالهم والله ما أعلم بأظلم ولا أجور في حكم منهم⁹**. تتالت الصِّراعات بين الطَّرفين فحصلت عديد الوقعات إنتهت

¹. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 248؛ ابن قتيبة الدِّينوري، الأخبار الطَّوال، تحقيق عيد المنعم عامر، مراجعة جمال الدِّين شيَّال، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي لإقليم الجنوب و الإدارة العامَّة للثقافة، سنة الطَّبَع لم تذكر، ص 288-289-290.

². ابن كثير، المصدر السابق، ج 3 ص 310.

³. الذَّهبي، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 75؛ تذكرة، مصدر سابق، ج 2 ص 87-88.

⁴. ابن عبد ربِّه، العقد، مصدر سابق، ج 1 ص 272.

⁵. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 254؛ الذَّهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 86.

⁶. الطَّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 4 ص 1244.

⁷. ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج 3 ص 400.

⁸. ابن قتيبة الدِّينوري، الأخبار، مصدر سابق، ص 316؛ ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 2 ص 844.

⁹. الذَّهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 86؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 2 ص 851-852-854.

بوقعة دير الجماجم بإنهزام ابن الأشعث سنة 83 هجري¹. إعتكف الشَّعبيّ بعد الهزيمة تسعة أشهر كاملة في داره²، حتّى توجّهت أنظار الفتوحات الإسلاميّة إلى خرسان وكلف بها قتيبة بن مسلم. نودي بأنّ من إلتحق بجيش بن مسلم سلم، فإلتحق الشَّعبيّ به³. ساهم علم ودراية الشَّعبيّ بالحديث والسنة من التّقرب من قتيبة حتّى أصبح كاتبه وسميره⁴. لكنّ هذه العلاقة لم تكن إيجابيّة تماما فيذكر الشَّعبيّ أنّه كان جالسا يتعشى مع قتيبة بن مسلم بالريّ حتّى وصل كتاب الحجّاج يطلبه ويهدّد قتيبة بالعزل والتنكيل به إن أفلت منه⁵. إختار الشَّعبيّ مواجهة الحجّاج رغم إقتراح قتيبة عليه بالفرار، فأخذ مقيّدا لكي لكي ينفذ فيه حكم عبد الملك بن مروان الذي أمر الحجّاج بعرض أسرى الجماجم على السيف وتكفيرهم ومن لم يعترف بكفره يضرب عنقه⁶.

يبدو أنّ عامرا توقع إكتشافه من قبل الحجّاج قبل حدوث ذلك، فبادر ببعث الرّسائل إلى صديقه يزيد ابن مسلم ليكلّم فيه الحجّاج، حتّى أنّه حين قدم لملاقاء هذا الأخير التقى أوّلا بيزيد الذي أشار عليه بالإعتذار ما أمكن لشدة ما كان يتوعّده به الحجّاج⁷. لزم الشَّعبيّ الصّمت وتقبّل كلّ الملام الذي إستقبله به الحجّاج ثمّ كانت الحكمة والدّهاء والمهادنة شفيعته فقد إعتد على الكناية والتّعريض ولم يصرّح بالكفر⁸، إذ قال: "أجنب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل فإستحلسنا الحذر وإكتحلنا السّهر وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء"⁹. ويمدّنا الطّبري برواية أشمل لهذا الخبر إذ يقول الشَّعبيّ: "لمّا قدم بي على الحجّاج لقيت ابن أبي مسلم فقلت: أشر عليّ، قال ما أدري ما أشير بع عليك غير أن أعتذر ما إستطعت من عذر وأشار بمثل ذلك عليّ نصحائي و إخواني، فلمّا دخلت عليه رأيت والله غير ما رأوا لي، فسلمت عليه بالإمرة ثمّ قلت أيّها الأمير إنّ الناس أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنّه الحقّ وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلّا الحقّ قد والله سودنا عليك وحرّضنا وجهدنا عليك كلّ الجهد فما آلونا فما كُنّا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا، وإن عفوت عنّا فبحلمك وبعد الحجّة لك علينا فقال الحجّاج: أنت والله

¹. الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 4 ص 1255.

². الذّهبيّ، تنكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 86.

³. الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 72.

⁴. الذّهبيّ، تنكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 87؛ ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 2 ص 859؛ الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 4 ص 1262.

⁵. ابن الأثير، المصدر السّابق، ج 2 ص 859.

⁶. ابن عبد ربّه، العقد، مصدر سابق، ج 1 ص 246~247.

⁷. ابن الأثير، المصدر السّابق، ج 2 ص 860؛ الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 72.

⁸. ابن عبد ربّه، المصدر السّابق، ج 2 ص 11.

⁹. الذّهبيّ، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 73.

أحبّ إليّ قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماننا، ثمّ يقول ما فعلت، ولا شهدت، قد أمنّت عندنا يا شعبي¹. وهذا ما سينعكس على موقفه من المذهب الشيعي ومن السلّطة الحاكمة في فترات حياته المقبلة.

ينمّ كلام الشّعبيّ للحجّاج عن فطنة ودهاءٍ إمتاز بهما، وحكمة وفنّ في الخطابة أنقذته من شرّ الثّقفيّ وحدّ سيفه. أعجب بهذه الميزة الكثير من العلماء إذ يقول سعيد بن حميد وهو يشبّهه كلام بكلام الشّعبيّ هذا قائلا: 'قوة هذا الكلام في سهولته وقرب مأخذه مع بعد تناوله والإتيان بمشاكله وأجلّ منه قول الشّعبيّ'². عفا الحجّاج على الشّعبيّ بقول قصير 'أمنّت عندنا يا شعبيّ'، ولكن هذا العفو قوبل بكلام وتفسيرات عدّة من لدن العلماء، وأغلبهم برّر هذا الإعفاء بعلم الشّعبيّ. وأورد ابن كثير حديث للبيهقي فيه أنّ الحجّاج سأل الشّعبيّ عن مسألة في الفرائض لكلّ من الخلفاء فيها رأي. فأورد الشّعبيّ كلّ الآراء لكنّه حكم بقول عثمان³.

تبدأ هنا نقطة التحوّل والانتقال في آراء ومواقف الشّعبيّ من السلّطة، فإن مدّتنا المصادر بالكثير من المعلومات عن غضب الحجّاج الكبير، وندم الشّعبيّ الأكبر، ومحاولته بكلّ الطرق إسترضاء والي العراق فإنّها لم تعطنا الصّورة الحقيقيّة للحديث الذي دار بين الشّعبيّ والحجّاج، وهل أنّ عبارات الاعتذار تلك وحدها جعلت الحجّاج يتخلّى عن وعيده رغم كلّ ما عرف به الحجّاج من بطش وحبّ لقطف الرّؤوس؟

تعدّدت في المصادر، إضافة إلى تلك المشاركات التي ذكرنا سالفًا، أخبار جمّة تدلّ بصفة مباشرة وفي أحيان أخرى بصفة غير مباشرة على تشييع الشّعبيّ. نلاحظ ذلك من خلال رأيه في بعض الشّخصيّات، فنجدّه يقول في كثير من المواضع 'الدّهاة أربعة معاوية وعمر بن العاص والمغيرة وزياد'⁴، وكلّ هؤلاء هم أمويّو الأصل أو الولاء، وهم بطبيعة الحال حسب رأيه المستولون على حقّ عليّ ابن أبي طالب والمسئولون عن دم الحسين بن عليّ.

¹. الطّبري، المصدر السابق، ج 4 ص 1262.

². القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمّد حسن شمس الدّين، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان الطّبعة الأولى 1987، ج 2 ص 234-358.

³. ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج 3 ص 418.

⁴. ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج 2 ص 610. ج 3 ص 89.

ومنح صفة القضاة في المقابل إلى أربعة هم 'عمر وعلي وأبو موسى ثمّ عبد الله'¹، وفي مواضع أخرى ذكر له 'أبو بكر وعمر وإبن مسعود وأبو موسى'². أدرج إلى الخليفة أبي بكر وعمر إثنين عرفا في الصفّ العلوي.

أولى أبو عمرو اهتماما خاصا بسيرة علي بن أبي طالب والأحداث التي تهتمّ به. ولقد أحصينا من خلال كتاب التاريخ للطبري المادّة الأساسيّة لمدوّنة الشّعبيّ عشرون خبرا يهتمّ فيها بأفعاله وأخباره، من ضمن مائة وخمسة عشرة خبر. وأورد ثلاثة أخبار تجزم بأنّ علي لم يسع إلى الخلافة، بل القوم أجبروه على المبايعة وكان أوّل من بايعه الأشتر النخعي³. كما اعتبر الشّعبيّ أنّ عائشة هي أوّل معارض لخلافة علي والمحرّضة على الفتنة، إذ قالت حين سمعت بخلافته 'ما أظنّ ذلك تاما، وأشرفت على الدّعوة للأخذ بدم عثمان مع الصّحابين طلحة والزبير'⁴. كما يؤكّد أنّ العديد من الأخبار التي وردت عن سيرته كانت مزيفة وكاذبة⁵. ويقول أنّه سمع الصّحابة الذين عاصروهم يذكرون أنّ علي في الجنّة⁶. يبدو أنّ شعور الشّعبيّ بانتمائه العلوي ثمّ الشيعي كان كبيرا، لكن إلى أيّ حدّ يمكن يمكن لهذا الشعور أن يتأقلم مع تغيّر الظروف وكيف سيكيّفه الشّعبيّ ليضمن سلامة علاقته بالسلطة؟

عرف الشّعبيّ نقلة كبيرة في موقفه من الدّولة الأمويّة فبعد أن كان من دعاة الثورة على السلطنة أصبح من أنصارها، بل ممن لهم مكانة هامّة في بلاط الدّولة. سنصف مراحل هذا التّغيير ومظاهره أوّلا من خلال علاقته بالحجّاج لأنّ النّقلة إنطلقت معه، كما أنّه السلطنة المباشرة على أبي عمرو. لقد تغيّرت تعاملاته مع الحجّاج قولا وفعلا، فبعد أن كان يكفّره إذ يقول: 'الحجّاج مؤمن بالجبت والطّاغوت كافرا بالله العظيم'⁷، نجده اليوم يصفه بالتائب المؤمن، ومعجبا بكلامه فيذكر لنا كلامه الواعظ الحكيم حيث قال: 'سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد قال: 'أمّا بعد فإنّ الله كتب على الدّنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرّتكم شاهد الدّنيا عن نائب الآخرة، وأقهروا طول الأمل بقصر الأجل'⁸. ثمّ أصبح يدعو له ويغيّر رأي المجتمع فيه.

¹. ابن عبد ربّه، العقد، مصدر سابق، ج 1 ص 11.

². ابن كثير، المصدر السابق، ج 2 ص 610.

³. الطبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 3 ص 828-833.

⁴. نفس المصدر، ج 3 ص 834.

⁵. الدّهبيّ، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 84.

⁶. البخاري، التاريخ، مصدر سابق، ج 6 ص 450.

⁷. ابن كثير، البداية، مصدر سابق، ج 3 ص 501.

⁸. البلاذري، الأنساب، مصدر سابق، ج 1 ص 295؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج 3 ص 489.

حتى قال: " والله لأن بقيتم لتمنّون الحجّج ، و" يأتي على الناس زمان يصلّون فيه على الحجّج¹.

ما يجب التذكير به في هذه المناسبة، هو أنّ الأزمة التي يعيشها الشعبيّ قد إستفحلت، فهو من جهة مطارِد من قبل السّلطة ومهدّدا بالقتل، ومن جهة ثانية خيبة الأمل في نجاح الثّورة الشّعبيّة، وإضطرتّه التّخلّي على طموحه الثّوريّ، وكذلك التّخلّي على مبادئ المذهب الذي يتبنّاه إذ نعتقد في وجود إتفاق بين الطرفين فحاجة الشّعبيّ العيش بسلام وهو في سنّ متقدّمة نوعا ما، وحاجة الحجّج القضاء على جذور هذه الثّورة خاصّة أنّ كلّ الثّورات كانت مرتكزة على القراء. أخذت العلاقة بينهما مجرى ثان وصفته كلّ المصادر وإهتمّت به، وقد توطّدت العلاقة بينهما حتى نجد الشّعبيّ يطلب من الحجّج حاجته بكلّ إستحقاق ودون أيّ تكلف². وهذا ما يكشف لنا شكل التّعامل النّفعيّ بينهما فهو فقيه الكوفة الذي له كلمة في تبرير أفعال الحجّج.

وصل الإنقلاب في شخص الشّعبيّ إلى حدود مجارات الحجّج في حديث لمعاوية عن علي بن أبي طالب، الأمر الذي أغضب منه الحسن البصريّ فلامه بقوله: " أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلم بهواه فقاربتّه في رأيه ويحك يا عامرا هلاّ إتقيت الله إذ سئلت فصدقت أو سكت فسلمت³، وهذا القول هو شهادة واضحة لمهادنة وتواطؤ الشّعبيّ مع السّلطة.

وأفتى الشّعبيّ لإبن هبيرة في أشياء رابته إذ قال له: " قارب وسدّد فإنّما أنت عبد مأثور وقد أمر له إبن هبيرة بألفين فقبلها وشكر عليها، في حين أنّ الحسن البصريّ الذي كان معه في المجلس قال له: " يا إبن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله⁴. وهذا الحديث يؤكّد لنا العلاقة التّكسيّبة التي يسلكها الشّعبيّ مع السّلطة.

أمّا الخدمة المثلى التي قدّمها الحجّج لأبي عمرو فهي تقريبه من عبد الملك بن مروان⁵. مروان⁵. ويبدو أنّه أصلح الوضع بينهما من جديد، وقد كلّفه في نفس السنّة التي عفا فيها عنه بمهمّة إبعاد أخيه عبدالعزيز بن مروان عن الخلافة. نجح الشّعبيّ في هذه المهمّة، فقد تنازل عبدالعزيز عن الخلافة ممّا زاده حظوة لدى عبد الملك. وكان من المقرّبين له

¹. إبن كثير، المصدر السابق، ج 3 ص 500.

². إبن عبد ربّه، العقد، مصدر سابق، ج 1 ص 128.

³. البلاذري، الأنساب، مصدر سابق، ج 1 ص 306.

⁴. إبن عبد ربّه، العقد، مصدر سابق، ج 1 ص 32.

⁵. ياقوت الحموي، معجم الأدياء، مصدر سابق، ج 1 ص 33.

وطلب منه أن يعلم إبنه الشَّعر، وتواصلت العلاقة بينهما طيبة حتى موت عبد الملك بن مروان فقد كان آخر من خرج من عنده ليلة وفاته. ولم تنقطع العلاقة بعدها بابنيه الوليد بن عبد الملك (86 هـ - 96 هـ)، وسليمان بن عبد الملك (96 هـ - 99 هـ) حتى وفاته (103 هـ).

ما يمكن إستخلاصه عن علاقة الشَّعبيّ بالسلطة أنّها كانت علاقة وسطية غير واضحة الموقف، حيث نجده في آن من رجال البلاط المقربّ لأرباب الأمور وثائر يريد الإطاحة بالسلطة، وناقدا لعديد المسائل في السلطة الأموية.

كان الشَّعبيّ كثير الإستشهاد ببيت شعري¹ لشاعر الدولة الأموية مسكين الدرامي²:

ليست الأحلام في حال الرضا وإِنما الأحلام في حال الغضب

أعتقد أنّ هذا البيت الشعري يعكس شخص الشَّعبيّ وما يجول في نفسه، وإلا فلماذا إختاره ليتمثّل به لو لم يكن يعبر عن حاله، ويبدو أنّ ما يقصده من وراء هذا البيت أنّ أحلامه وما يصبو إليه وأفكاره لا تظهر إلا في ساعات الغضب وهي ربّما تكون فترات إشتراكه في الثورات، وربّما يدلّ أيضا في حال أنّ الشَّعبيّ يعيش في وضع ميسور وفي رضا فإنّه تنقشع كلّ غيوم الغضب والأحلام وهو ما يطابق مراحل حياته. وثبت لنا بذلك حقيقة الشَّعبيّ العالم المتكسّب، الذي يكسب قوة حياته بالتخاذل للسلطة.

لابدّ لهذا التغيّر في موقف الشَّعبيّ من السلطة أنّ يلازمه تغيّر في مذهبه وإلا فلن تكتمل واقعية الصورة، لكنّ تغيّره في مذهبه كان إنقلابا من نقيض إلى نقيض، فقد أصبح من ناقد المتشيعّة بل ينقدهم نقدا لاذعا. يخبرنا ابن سعد في طبقاته بحديث لمالك بن المغول أنّ الشَّعبيّ قال: "لو كانت الشيعة من الطير كانوا رخما ولو كانوا من الدواب كانوا حميرا"³، ويبرّر لنا هذا الإنقلاب بأنّه "كان شيعيا فرأى منهم أمورا وسمع كلامهم وإفراطهم فترك رأيهم وعيبيهم"⁴. لا يمكننا الجزم بأنّ هذا القول هو دلالة على تخلي الشَّعبيّ عن مذهبه لأنّه بإمكانه أن يتهم ويعيب المتشيعّة دون المساس بالمذهب الشَّعبيّ في حدّ ذاته، فهو علويّ من أوّل أيام حياته ولن يكون من السهل عليه التخلي عن ميولاته.

¹. ابن خلكان، وفيات، مصدر سابق، ج 2 ص 229.

². ربيعة بن عامر بن ليث بن دارم المتوفى سنة 90 هجري والملقب بالمبرق، أنظر: شامي(بحيى)، موسوعة شعراء العرب، دار الفكر العربي بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1999، ج 1 ص 405؛ قول بايتي(عزيزة)، معجم شعراء المخضرمين والأمويين، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1998، ص 158.

³. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 1 ص 84.

⁴. نفس المصدر، ج 6 ص 248.

أصبحت الظروف لصالح الأمويين ولا مفرّ منها لذلك حاول الشّعبيّ أن يكيّف آرائه حسب هذه الظروف. ونلاحظ هذا التّمزّق بين الطّرفين العلوي من جهة والأموي من الجهة الثانية من خلال العديد من الأخبار، فهو القائل: "أنا مبغض لمن أبغض عثمان وعليّاً¹، أي أنّه مبغضا لكلّ الطّرفين وهذا موقف جديد لم يكن له حضور في تلك الفترة.

دار حوار بين جلساء الشّعبيّ، وكان ذلك في فترة خلافة عبد الملك، حدّث رجل من الحضور عن الصحابة عن رسول الله قال: "إعبدوا ربّكم ولا تشرّكوا به شيئاً وأقيموا الصّلاة وأطيعوا الأُمراء فإن كان خيراً فلكم وإن كان شرّاً فعليكم وأنتم منه برّاء" فقال له الشّعبيّ: كذبت². يبدو أنّ هذا الرّجل هو أمويّ مطيع للسلطة داعياً للخنوع لها، لكنّ الشّعبيّ لم يعجبه هذا الرّأي وصدّه، وهو ما يحملنا على التّفكير في أنّ مواقف الشّعبيّ وأرائه لم تتمح تماماً بل بقيت دفيئة وغير معلنة.

إختار الشّعبيّ منطقة وسطى بين المذهبين وهي الحياد. وأوّل ظهور لهذا الموقف كان مع أبي موسى الأشعري، لكنّه لم يستقطب عدد كبير يجعله يحتلّ مكانة بين المذاهب إلّا مع نهاية القرن الأوّل للهجرة. فعرف أهل هذا الرّأي بالمعتزلة لأنّهم إعتزلوا التّشيع لأحد الطّرفين، لذلك ذكر العلماء الشّعبيّ في آخر أيّامه حياته في طبقات المعتزلة³. ومن آراء الشّعبيّ الإعتزاليّة أنّه قال: "أحبّ آل محمّد ولا تكن رافضياً وأثن وأعبد الله ولا تكن مرجئاً ولا تكفرّ الناس فتكون خارجيّاً، وألزم الحسنه ربّك، والسيّئة نفسك ولا تكن قدريّاً⁴. وذكر الوصفي هذا القول للشّعبيّ ببعض الإختلاف: "أحبّ صالح المؤمنين وصالح بني هاشم ولا تكن شيعيّاً، وأزح ما لا تعلم ولا تكن مرجئاً، وأعلم أنّ الحسنه من الله والسيّئة من نفسك، ولا تكن قدريّاً وأحبب من رأيته يعمل بالخير وإن كان أخرج سنديّاً.

يضمّ هذا الرّأي موقف الشّعبيّ من جميع المذاهب والمعارضات التي كانت تتناحر على السّلطة في أيّامه. يقول أحبّ صالح بني هاشم أي من لم يتحالف مع المعارضين، ويعارض الخوض في المسائل الغيبية، وأيضا في قضية أنّ الإنسان مخيّر أم مسيّر، والموازاة بين المسلمين أيّ كان أصله وعرقه.

¹. الذّهبي، تذكرة، مصدر سابق، ج 1 ص 84.

². نفس المصدر، ج 1 ص 84.

³. ابن المرتضى، طبقات، مصدر سابق، ص 130.

⁴. نفس المصدر، ص 103.

⁵. ابن سعد، طبقات، مصدر سابق، ج 6 ص 249.

كان التّغَيّر في شخص الشّعبيّ لا يهدأ على امتداد فترة حياته لذلك يلحّ علينا التساؤل عن مدى تأثير كلّ هذه التّغيّرات على مادّته الإخباريّة وكيف كان تعامله مع الحقائق التاريخيّة؟

ب - كيف تعامل الشّعبيّ مع مدوّنته الإخباريّة

نشأ الشّعبيّ في الكوفة مصر الأحداث بالنّسبة للدّولة الإسلاميّة، حيث شهد كلّ أحداث القرن الأوّل وكانت عجلة التّغيّرات في تلك في حرّيّة دائبة في المنتصف الثّاني من القرن الأوّل للهجرة، فاستقبلت نتائجها، وأثّرت في مجتمعها وفي حضورها السّياسي بين الأمصار. وكان الشّعبيّ رأس المخبرين في المدرسة العراقيّة، وهو خير مثال عن هذا المجتمع لضّمّه عديد الصّفات العلميّة والسّياسيّة، فلا يسعنا إلّا التّساؤل عن تبعات ذلك على الخبر عند الشّعبيّ، وهل تأثّرت الرّواية لديه بالنّزعة الشّيعيّة وخاصّة وكما ذكرنا سابقاً أنّ اعتناقه المذهب الاعتزالي كان في أواخر حياته؟

سنحاول تتبّع المصادقيّة والموضوعيّة في أخبار الشّعبيّ أوّلاً من خلال موضوع الخبر وثانياً في أسلوب طرحه له. إنّ أوّل حدث هام حصل في تاريخ الدّولة الإسلاميّة هي الرّدّة التي أنت سريرة في أواخر حياة الرّسول وبداية خلافة أبي بكر. ترتّب على الرّدّة عديد الإجراءات ومواقف تجاه المرتدّين فحرموا من المشاركة في الفتوحات، كما أخذت منهم أسلحتهم بعد أن إتفقوا على الصّح أو بعد إنهزامهم. نجد أبو بكر إتخذ موقفا صارما من هذه القبائل حيث أمر رؤساء جيوشه بعدم تشريكهم في الغزو، حيث قال: **ولا يغزون معكم أحدا إرتدّ حتّى أرى رأيي، فلم يشهد الأيام مرتدّ¹، أمّا عمر بن الخطّاب فإستعان بهم فكان لا يؤمّر أحدا إلّا على النّفر وما دون ذلك².**

ما يلفت إنتباهنا أوّلاً أنّ أخبار الشّعبيّ عن هذه الأحداث، وعن فترة خلافة أبي بكر قليلة جدّاً ونادراً ما يهتمّ بتفاصيل الحدث حتّى وإن ذكره. وتنعهد تماماً أخباره عن الرّدّة رغم أهميّة هذا الحدث في تاريخ الدّولة الإسلاميّة، وما حصل على أساسه من تمييز بين القبائل. مثلت أخبار الرّدّة، بما أنّ أغلب القبائل اليمينيّة كانت من العناصر الفاعلة فيها، نقطة سوداء في تاريخ هذه القبائل، فالردّة الأولى كانت مع الأسود العنسي، أمّا الرّدّة الثّانية كانت مع سيد كندة الأشعث بن قيس. وربّما كان الشّعبيّ قد تعمّد عدم الإخبار عن أحداث الرّدّة خاصّة أنّ الأشعث من الأسياد الذين يمثّلون القيادة السّياسيّة والعسكريّة.

¹. الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 2 ص 560.

². نفس المصدر، ج 2 ص 673.

وسيطهر ذلك في فترات لاحقة مع إبنه محمد بالأشعث الذي كان القيادة في أهم ثورة شارك فيها الشعبي.

في حين أطنب الشعبي من أخبار الفتوح التي كانت للقبائل اليمينية الأصل مشاركة هامة فيها. أحصينا له 75 خبر عن الفتوح في أيام عمر بن الخطاب في تاريخ الطبري وحده. لقد إهتم بالغ الاهتمام بتفاصيل عمليات الفتوح، وضخامة هذه المهمة، وأبرز مجهود هذه القبائل في إنجازها، ثم وصف مراحل الاستقرار وأسباب ارتكازهم بمنطقة دون أخرى مثل سبب استقرار قبيلة بجيلة بالعراق¹. وحاول مدنا بأعداد تحصي ما حصل عليه المسلمون من غنائم.

جهد الشعبي في إبراز الدور الذي قام به أبناء عشيرته في مختلف الأحداث التي مرت بالدولة الإسلامية. فنجد مثلاً يذكر أن عثمان بن عفان قد كلف إضافة إلى رجل من الأنصار، رجل من همدان لحماية بيت المال أيام الفتنة، وهو ما نستنتج منه بصفة ثانوية قيمة هذه القبيلة لدى الخليفة، إضافة إلى أنها لم تشارك في عمليات التخريب وفي إزكاء نار الفتنة.

كما يذكر أن أول من بادر بالمبايعة لعلي بن أبي طالب هو الأشتر النخعي من قبيلة نخع اليمينية الأصل في محاولة منه لإنقاذ الأمة من التشتت والضياع. ويصف لنا هذا الأخير مشاركته² أثناء وقعة الجمل، حين أبلى البلاء الحسن في هذه المعركة، وأبرز لنا مهارته وكيف أفلتت من بين يدي عبد الله بن الزبير، في حين أن ابن الزبير ومروان بن الحكم جرحا في هذه المعركة.

يذكر لنا أيضا خلال هذه المرحلة من خلافة علي بن أبي طالب مساندة القبائل الكوفية اليمينية الأصل له، فيذكر قبيلة طي التي جاءته وفودها تعلن له وفاءها وإخلاصها. ولا يفوته أن يصف لنا خسارة القبائل اليمينية المساندة للصف الأموي³.

يثنى الشعبي على بعض القبائل من خلال إيراد رأي الخلفاء فيها حيث يقول قال عمر بن الخطاب: **نعم الحي الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر**⁴، بل يعود بنا إلى مرحلة دخول هذه القبائل في الإسلام ويذكر أنها كانت من أولى القبائل التي بعثت بوفودها إلى

¹. الطبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 2 ص 604.

². نفس المصدر، ج 3 ص 866.

³. نفس المصدر، ج 3 ص 846 . 866.

⁴. نفس المصدر، ج 2 ص 605.

الرّسول لتثبت دخولها في الدّين الجديد. وذكر أنّ هذه الوفود فاقت 45 وفداً، أي أنّ أغلب هذه القبائل إن لم نقل كلّها دخلت في الإسلام مبكراً.

وفي مستوى ثانٍ من شعوره بالإنتماء أطنب الشّعبيّ في سرد أخبار الكوفة "موطنه"، من خلال ذكر كلّ أخبار الأحداث التي مرّت بها، إضافة إلى أنّ خبره عامّة كان مؤثراً بشخصيّات كوفيّة. عدّد لنا أبو عمرو مزايا الكوفة ومزايا أهلها، فهي أوّلاً كانت مقصد أغلب الصحابة الذين رغبوا في الانتقال إلى الأمصار، ثمّ أنّ علي بن أبي طالب وصفها بـ "كنز الإيمان"، وقال في أهلها "أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم حتّى صارت إليكم مواريتهم فأغنيتهم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوّهم". وحسب الشّعبيّ فإنّ الحجاج أيضاً رغم ما وصف به أهل الكوفة من "شفاق ونفاق" فإنّه يفضّلها عن غيرها من الأمصار. من هنا تظهر لنا عاطفة الإنتماء، لأنّ النزعة القبليّة وإن بهت حضورها في الفترة المحمديّة، فإنّها سرعان ما ترعرعت وأينعت من جديد جرّاء أحداث سياسيّة، وإقتصاديّة طبيعيّة أو مفتعلة. لذلك لم تفت فرصة للشّعبيّ إلاّ وذكر فيها قبيلته أو المصّر الذي ينتمي إليه جغرافياً.

ظهرت جذور الفتنة منذ اليوم الأوّل الذي سمّي فيه عثمان خليفة على المسلمين، وباتت تحتدّ يوماً بعد يوم، وقد أخذت هذه الحادثة نصيباً هاماً من إهتمام عديد العلماء والمؤرّخين، ووقع تحليل أسبابها والحقائق الخفيّة وراءها بما فيه الكفاية. لكننا في هذا الموضوع سننظر إلى هذه القضية من منظار الشّعبيّ لتتمكّن من توضيح موقفه وعلى من تقع لائمته في الفتنة بين المسلمين.

ظهرت سلسلة التّجديدات والإصلاحات أو "البدع" منذ اليوم الأوّل لخلافة عثمان، وكان أوّل إجراء قام به هو الزيادة في العطاء. حيث زاد الناس 100، وسمح بالانتقال إلى الأمصار¹، وهو على عكس ماجرت به العادة مع عمر بن الخطّاب الذي خاف من إنتشار أهل قريش بين الأمصار بأن تحدث بينهم تفرقة وتكون باعث على المشاكل، وقد وُلد ذلك غيظ وتحرّز من مواقفه.

حافظ عثمان في مسألة الولاء على وصيّة عمر إذ ولى سعد بن أبي وقّص على الكوفة، لكن سرعان ما عزلته بعد التّشكيّات التي كانت تصله من سكّن أهل الكوفة، وخاصّة حائّة إقتراضه لمال من بيت المال ورفضه إرجاعه، وكانت هذه الحادثة السّبب المباشر لعزله².

¹. الطّبري، تاريخ، مصدر سابق، ج 2 ص 737 . 756.

². نفس المصدر، ج 2 ص 759.

ومن "البدع" التي ظهرت مع عثمان بن عفان وضعه لطعام رمضان على عكس عمر بن الخطاب الذي قال: "أشبع الناس في بيوتهم"، والشعبي يبرّر هذا الإجراء أيضا بأنه وضع هذا الطعام "للذي يتخلف في المسجد، فأين السبيل، والمعتمرين بالناس في رمضان"¹. وقع هذا الإجراء موقعا كبيرا في نفوس المسلمين أجمعين لأن تلك الفترة هي حساسة وبها تناحر بين العرب والمواني وظهور بما يسمّى بالشعبيّة.

يصف لنا الشعبيّ اشتعال الفتنة، ومجرى الأحداث، ومحاصرة عثمان إلى حين قتله، وقد مدّنا بكلّ تفاصيل الخبر، إلاّ أنّه عند حديثه عن قتلة عثمان فإنّه لم يعرف غير التّجيببي، وإكتفى عند ذكر البقيّة بقوله "الآخر"، و"رجل"، و"دخل الآخرون" إذ يبدو أنّ الشعبيّ يتعمّد عدم التعريف بهم، إلاّ أنّه في مقابل ذلك صوّر لنا الطّريقة التي دفن بها المسلمون خليفهم، حيث دفن تحت جناح الليل ولم يحضر جنازته غير ثلاث هم مروان بن الحكم ونائلة بنت الفرافصة، وإبنته.

راوح الشعبيّ في أخباره عن عثمان بين عنصر الإتهام وعنصر الدّفاع، إلاّ أنّه من المؤكّد أنّ هذه المراوحة لم تخفي ما يبطن الشعبيّ من مواقف حول الخلافة، وإن جعله الوضع الرّاهن يوجّه ظاهر خبره حسب ما يرضي السّلطة.

إنّقلت الخلافة بعد موت عثمان إلى علي بن أبي طالب في أسوء فترة عرفتها الدّولة الإسلاميّة، حيث شهدت تناحر الأطراف على السّلطة إن بيّت ذلك أم أعلن. لن نكرّر ما ذكرنا سابقا من تشييع الشعبيّ لعلي، إلاّ أنّنا سنحاول إبراز ملامح التشييع في أخباره.

يرسم لنا الشعبيّ شخصيّة علي بن أبي طالب بالشخص المتوازن الغير المتكالب على السّلطة بل هو الزّاهد فيها. لم يسع علي لنيل الخلافة رغم أنّ "مغيرة الرّأي" نصحه أيّام الفتنة بالخروج إلى اليمن حتّى لا يلومه لائم عن مقتل عثمان ثمّ يطلبونه للخلافة ولكنّه رفض ذلك. وأراد الخلافة شوري مثل ما فعل عمر بن الخطاب إلاّ أنّ الناس أرغمتهم البيعة.

أمّ بالنسبة للحرب العلويّة الأمويّة فإنّ الشعبيّ يرجع جذورها إلى ما قامت به عائشة بنت أبي بكر، فهي التي رجعت قافلة من مكّة وحرّضت على الأخذ بئار عثمان معتبرة أنّ خلافة علي هي أمر غوغاء ولا يجيب أن يتواصل. رغم كلّ إحتداد الصّراع بين الطّرفين لم

¹. نفس المصدر، ج2ص 767.

يترك علي الحليم للتنافسات أن تفسد أخلاقه، إذ نجده يوم صقّين يطلق سراح أسراه من صفّ الأمويين في حين كان عمرو بن العاص ومعاوية يتشاورون في قتل أسراهم. يعتبر الشعبيّ المخبر الوفيّ لكلّ فترة من فترات تاريخ الدّولة الإسلاميّة إلى سنة وفاته، إذ لم يترك فترة إلاّ وحدث فيها، لكنّه بالنسبة للدّولة الأمويّة هو العين الشّاهدة والمشاركة في أغلب الأحداث، فهل أنّ أخبار الشعبيّ في ظلّ الدّولة الأمويّة بقيت على حالها من الإعتدال النسبي أم شابها بعض الإحتراز أو الإنحياز؟

إنّ أوّل عهد عامرا بالمشاركة السياسيّة كانت مع حركة المختار بن عبيد الثّقفي، حدّثنا الشعبيّ عن مشاركته وأبيه في هذه الحركة دون إخفاءٍ لذلك. وسرد أحداث هذه الحركة بكلّ تفاصيلها، كما لم يخف حقيقة تيقّنه من كذب المختار كما لم يخف أيضا حقيقة تشييعه ورغبته في الأخذ بثأر الحسين بن علي.

نتساءل في هذا الصّد عن حقيقة هذا الإخباريّ وهل أنّ له من الجرأة والموضوعيّة ما يسمح له بأن يتحدّث عن كلّ تفاصيل الأخبار حتّى التي كانت له مشاركة بها، أم أنّ الجانب الثّاني من شخصيّة الشعبيّ رجل البلاط المتملّق المتكسّب تظهر ههنا في هامش الحرّيّة التي أنعمت بها السّلطة عليه.

ربّما يذكر الشعبيّ تفطنه لكذب المختار حتّى يبرئ نفسه من تهمة تصديق نبوءة المختار بعد أن قال: "وإن كذّبتموني فقد كذّبت رسلا من قبلي"، لكنّه يفاجئنا مرّة ثانية بجرأة أخباره، حيث يعلمنا بأنّه هو المس وول عن توتر العلاقة بين ابن الأشعث والحجّاج، إذ أفشى سرّ هذا الأخير بما يكنّه للأشعث من كره ورغبة في قتله. وأثناء حديثه عن ثورة ابن الأشعث يعلمنا عن مشاركته الفاعلة في هذه الحركة وكيف كان يدعو للقتال، وكان ينعت السّلطة الأمويّة بالجائرة والظّالمة. وإن كان الشعبيّ لم يصرّح بهذه الأخبار والمواقف في أيّام الحجّاج، فإنّه يبقى زمن إخباره عنها أيّام الدّولة الأمويّة.

تكشف لنا الأخبار عن العلاقة الوثيقة بين الشعبيّ والسّلطة بجميع مستوياتها، إذ يغدق عليه أهل السّلطة الهدايا والأعطية، فمثلا حدّثنا الشعبيّ عن زيارته لبشر بن مروان (والي الكوفة)، فيقول في إحداها لحاجب بشر "قد حدث أمر لابديّ لي من إنّهائه إليه"، فو ليس السّمير والراوية الذي يؤنس رجال السّلطة في جلساتهم، بل له مهام يقوم بها. ويقول أثناء دخوله على بشر في زيارة ثانية، وهذا الأخير يجلس وخاصّته وحنين بن بلوع المغنّي - ويبدو أنّها جلسة خاصّة إلاّ أنّ الشعبيّ يسمح له بالدخول - أصلح الله الأمير، عندي لك من

السرّ لكلّ ما أرى منك والدخول معك فيما لا يحتمل، والشكر على ما توليني¹. خرج الشّعبيّ من عند بشر بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب مقابل الخدمة التي أسداها له ومقابل التّكتم عن سرّه، وكثيرا ما تتكرّر مثل هذه الأخبار التي تصف لنا الشّعبيّ في وضع المتكسّب المبجلّ لدى السّلطة وهو ما يدلّ أنّ عديد الأخبار بقيت مسكت عنها لغايات ماديّة غلبت على طابع الشّعبيّ.

ساهمت هذه العلاقة الوسطيّة بين الشّعبيّ والسّلطة في منح أخبار الشّعبيّ طابعا خاصا بها، حيث نجده متكّما أحيانا وربّما يذهب في بعض منها إلى التّغافل والإهمال بدافع شخصيّ أو خارجيّ، كما نجده في أحيان أخرى يحاول تلخيص الخبر مبتعدا عن التّفصيل، وفي حالة ثانية نجده يذهب بنا إلى أدقّ التّفصيل في الخبر. كان لهذا الهامش من الحرّيّة الذي تمتّع به الشّعبيّ إيجابيّة، كما لم يخلو من بعض السّلبات إلا أنّنا إذا تفحصنا وقارنا وحاجنا مدوّن الشّعبيّ بصفة عامّة لا نخرج من ذلك بغير الشّهادة بأهميّة هذه المدوّن من حيث الكمّ والثراء والطّرافة في بعض الأخبار التي تجاهلها أبناء جيله من الخبرين.

حظيت مدوّن الشّعبيّ بنصيب هامّ من إعتدال الرّأي ومن وجهة المواقف ومن تحليل العالم، حيث طبعت أخبار الشّعبيّ بأسلوب حياديّ في نقل الأحداث وتحليل أسبابها تحليلا موضوعيّا، رغم ما نلاحظه من تحيّز في بعض الأحيان إلى أصوله القبليّة والجغراسياسيّة يبقى في إطار الافتخار والإعتزاز بأصوله من خلال الإطناب في الاهتمام بأخبارها فلم يسمح لتشيّعه لأيّ جانب أن يؤثّر في مصداقيّة خبره.

خاتمة

جمع الشّعبيّ في شخصه عديد الثّنائيات، وربّما أمكن لنا أن نسمّيها تناقضات، أضفت عليه كمّ هائل من الطّرافة، فهو زميّا حاضر في المدرسة اليمينيّة، وأيضا في المدرسة العراقيّة، كما أنّه على المستوى العلمي هو الفقيه المحدث وفي الآن الإخباريّ الرّأويّة ناظم الشّعور، ومن ناحية الوعي السياسيّ نجده شيوعيّ نائر على السّلطة ورجل اعتزاليّ من رجال البلاط.

وقد صل الخبر مع الشّعبيّ إلى مرحلة الاكتمال إذ حظي بعناية هذا الأخير، ممّا يدلّ على تكوين الشّعبيّ من ناحية وعلى وعيه بالمادّة التي يقدّمها. ووعيه أيضا بتطور علوم عصره وتغيّر حاجة الطّرفيّة التاريخيّة. اعتمد عامر في طرحه لخبره أسلوب حافظ به على

¹. الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 2 ص 343.

تمامه وشموليّته، فقد كان ملماً بالخبر مع احترامه في ذلك للتتالي الزمّني والترتيب في مراحلها. كما مزج كلّ ما جمعه ذخيره من علوم العرب في عمليّة بناءه للخبر، إذ أدرج في ذلك الشّعْر والخطب، والرّسائل والمراسلات الرّسميّة بين الخلفاء وعمّالهم لتدعيم خبره. وهذا السّبق كان له أثر على الجيل من تلاميذه، إذ لغت انتباههم إلى الوثائق الرّسميّة من سجلّات ودواوين. نكتشف مساهمة الجيل الأوّل من الإخباريين في نشأة الكتابة التّاريخيّة عند العرب من خلال دور الشّعبيّ كخير أنموذج عنه، فقد وضع أبو عمرو الأسس الأولى للكتابة التّاريخيّة من خلال رسم ملامح الخبر شكلاً ومضموناً، وبذلك إلتمسنا معه التّوجّه الجديد للخبر. فقد أعلن عن تنصّل الرّواية عن قواعد مدرسة الحديث. وهنا يكمن تميّز هذا الإخباريّ وطرافته من خلال إحتكاره لعديد الخصوصيّات أوّلها إلمام روايته بكلّ المراحل التي مرّت بها الإنسانيّة بل كان من السّابقين إلى النّظرة الكونيّة للتّاريخ، حيث رسم لنا الكون في سلسلة متواصلة وعاد إلى مرحلة بداية الخلق حتّى آخر حياته. إضافة إلى أنّه أرسى المقاليد الأولى لمدرسة العراق من خلال توجيه الخبر إلى مواضيع جديدة أوّلها أخبار الفتوح وعمليّات إنشاء الأمصار الجديدة. إكتشف العرب أهميّة الإخبار في هذا الغرض حتّى يتمكّن من تطبيق القواعد الفقهيّة على الأمصار المفتوحة كلّ حسب الطّريقة التي فتح بها.

ترك لنا أبو عمرو مدوّنة هامّة وصلتنا عبر حلقات تلاميذه، لأنّ لم يكن من العلماء الذين إكتفوا بجمع العلوم فقط، إنّما أفاد الأجيال من بعده من خلال حلقات التّدريس التي كانت من أكبرها في أيّامه، حيث وصلتنا أخباره من خلال شبكة واسعة من المخبرين ضمّت العديد من أسماء الهامّة من المخبرين المؤرّخون مثل مجالد بن سعيد وعمرو بن محمّد بن قيس، وأبي مخنف، والدائني محمّد بن عليّ أبي الحسن إلى غير ذلك.

المصادر والمراجع :

- ابن الأثير، اللّباب في تهذيب الأنساب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، سنة الطبع لم تذكر

- الأصفهاني، الأعاني، تحقيق عبد الأعلى مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر والتّوزيع بيروت، لبنان الطّبعة الثّانية سنة الطّبع لم تذكر

- البخاري (أبو عبد الله بن محمد بن أبي الحسن إسماعيل)، التاريخ الكبير، تحقيق عبيد بن فيروز وعمر بن عبد الرحمن، مؤسسة الكتب الثقافية، سنة الطبع لم تذكر.
- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)، أنساب الأشراف، تحقيق وتقديم سهيل زكار ورياض زركلي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1996
- ابن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة
- الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الخامسة 1985
- ابن الجوزي، أعمار الأعيان، تحقيق محمد محمود الطنّاجي، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة 1994
- ابن حنبل (أحمد بن محمد)، الجامع في العلل والمعرفه الرجال، إشراف محمد حسام بيضون، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان 1990.
- ابن حجر، تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد سوريا حلب ودار القلم للطباعة، الطبعة الأولى، لبنان 1999
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين)، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة طبعة سنة 1948-1949.
- الدينوري (أبو محمد عبد الله بنعمر ابن قتيبة)، المعارف، تحقيق محمد إسماعيل، عبد الله الضاوي، طبعة المكتبة الحسينية، مصر الطبعة الأولى 1934.
- الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشّار عوّد معروف، دار الغرب الإسلامي، لبنان الطبعة الثالثة 1955.
- الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمتعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان الطبعة الرابعة عشر 1999. - ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، لبنان طبعة 1957.

- السمعاني، الأنساب، تحقيق عبدالله عمر البارودي، دار الجنان، الكعبة الأولى سنة 1998.
- السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن)، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة 1996.
- الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1998.
- ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين شيبال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لإقليم الجنوب و الإدارة العامة للثقافة، سنة الطبع لم تذكر
- الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1987
- ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن كرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1994
- ابن المرتضى (أحمد بن يحيى)، طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة دي قلد قلز، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، سنة الطبع لم تذكر
- وكيع، (إبن حبان محمد بن خلفان)، أخبار القضاة عالم الكتب بيروت، لبنان سنة الطبع لم تذكر
- ياقوت (شهاب الدين الأيوبي عبد الله)، معجم الأدباء إرشاد الإرب إلى معرفة الأدب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1993.
- شاكر (مصطفى)، التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطوّر علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام دار العلم للملايين، مصر الطبعة الثانية 1970
- شامي (يحيى)، موسوعة شعراء العرب، دار الفكر العربي بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1999

- قول بايتي(عزيزة)، معجم شعراء المخضرمين والأمويين، دار صادر للطباعة والنشر
بيروت، الطبعة الأولى لبنان 1998